على هامش النقد

كتب وشخصيات

للأســـتاذ سيد قطب

١ — « عبقرية محمد » للعقاد

العقاد رجل متعب بالقياس إلى النقاد وبخاصة فى كتاب « عبقرية محمد » ، فالناقد لا يحس بلذة عمله إلا حين يجد مجالاً لمشاركة المؤلف فى عملية الإنشاء والخلق . حين يجد مجالاً لمناقشة الفكرة ، والزيادة عليها فى بعض الأحيان ، أو التعرض لها من زاوية غير التى تعرض لها المؤلف ... وبالإجمال حين يجد له عملاً آخر بجانب المؤلف غير مجرد الاستعراض

والعقاد — وبخاصة فى كتابه الأخير — يحرم الناقد هذه اللذة ، ويكاد يقعده عن الكتابة ... وما جدوى أن يكتب الناقد ليقول : « هـذا جيد ... وهذا جيد كذلك ... وهذا كذلك جيد أيضاً ! » حتى ينتهى من صفحات الكتاب وفصوله ، وهو يكرر جملة واحدة أو ما فى معناها ؟ إنهـا إذن تحية وليست نقداً كما يشاء النقاد !

الرجل موهوب — هذا ما لا شك فيه — ثم هو لا يقنع بهذه الهبة الضخمة — كما يقنع مع الأسف كثير من شبابنا المتطلعين إلى الشهرة فى هذه الأيام لمجرد إحساسهم بنوع من الهبة الطبيعية - إنما هو كذلك قارىء عظيم ، وقارىء يعرف كيف يقرأ وكيف يفيد من هذه القراءة ؛ قارىء يحس أن القراءة وظيفة له فى هذه الحياة ، لا يجوز أن تعوقه عنها وظيفة أخرى ، حتى وظائف كسب العيش ، ووظائف الخدمة العامة

ومن الموهبة الضخمة والقراءة الكثيرة ، كان هـذا الذى يلاقيه الناقد من العنت والتعب حين يتعرض لأدب العقاد ولنثره خاصة ، فشعره لإجماله ولأنه تعبير عن النفس الإنسانية ، فيه مجال للشرح والتحليل واستخلاص ملامح النفس من خلاله ، وفى هذا كله إرضاء لشعور الناقد ، وإشعار له بأنه يعمل شيئاً بجوار الشاعر !

جالت فى نفسى هذه الخواطر وأنا أقرأ كتاب « عبقرية محمد » للمرة الثالثة ، عسى أن أجد ما أقوله غير « هذا جيد ، وذاك جيد ؛ وذلك كذلك جيد ... » ثم عدت لأرى أن الاستعراض أسلم طريق .

* * *

ما موضع هذا الكتاب فى مكتبة « محمد » وما وظيفته التى يؤديها ولا تؤديها المؤلفات الكثيرة والأخبار الروية ، عنه عليه السلام ؟

موضع هذا الكتاب أنه خلاصة لهذه المكتبة ولكنها خلاصة « مكيَّفة » تكاد أن تكون شيئاً آخر غير ما استخلصت منه « خلاصة ماهر » والعقاد يقول فى أحد أبياته :

ليست خلاصة كل شىء غنية عنه وإن كانت خلاصة ماهر

ولكنها فى هذه المرة خلاصة تغنى من يريد أن يعرف من هو محمد على وجه التحقيق ، لأن فيها من التعليقات والتوضيحات والتحليلات ما يجعلها غنية وافية كل الوفاء ، وليس بالقليل أن تستمد من مكتبته كتاباً

ووظيفته التى يؤديها وينفرد فى أدائها ، أن كل من عرف « محمداً » من قبل فى جميع الروايات والسير والأسانيد والشروح وكل من لم يعرفه كذلك ، كلاهما فى حاجة أن يعرف « محمداً » مرة أخرى فى هذا الكتاب ! وأن يرى صورته فى هذه المرآة الوضيئة ، وإنه لواجد حتماً فى الصورة عامة ، وفى كثير من جزئياتها جديداً لم يره من قبل فى أية مرآة ... وسينظر ويتأمل ثم يقول المرة بعد المرة : وىْ ... إن هـذا القسم من الصورة لم يكن هكذا فى ضميرى ؛ أو يقول : نعم ... كنت أعرف ذلك ولكن ليس على هذا النحو الذى أراه الآن ! !

ومع هذا وذلك ، فليس فى « عبقرية محمد » خبر غير مروى من قبل ، ولا حادثة لم تكن كذلك معروفة ، ولا جزئية واحدة لم يتعرض لها الرواة والمحدثون ؛ وهذا ما يجعل البعض يقول لأول وهلة : كل ما فى الكتاب معروف ! وما قد يجعلهم

يحسون بالسهولة واليسر فى الجهد الذى بذله المؤلف !

والحقيقة أن هذا شعور خدّاع ، وأن عبقرية العقاد ونضوجه فى هذه الأيام هما اللذان يهيئان ذلك ؛ وإنها لعبقرية ـ لا شك ـ ونضوج أن تصنع من المادة الميسرة للجميع شيئاً لم يتيسر من قبل للجميع !

وإن العقاد لمحق حين يرى فى مقدمة الكتاب أن الثلاثين عاماً التى مضت بين مولد هذه الفكرة فى نفسه وبين تنفيذها ، كانت لازمة لفسح نفسه ، حتى تستطيع أن تستوعب انفساح « عبقرية محمد » ... وإن فى الكتاب للفتات نفسية وفكرية لا تتيسر لكل إنسان ، ولعلها لم تكن تتيسر للعقاد نفسه قبل هذا الزمان ... وإنه ليقول :

« أين كنا قبل تلك السنين الثلاثين ؟

« إنها مسافات فى عالم الفكر والروح ، لو تمثلت مكاناً منظوراً ، لأخذ المرء رأسه بيديه من الدوار ، وامتداد النظر بغير قرار »

والذين يعرفون طبيعة العقاد وانفساحها وتوفزها والتهامها لكل جديد ، وتجددها حيناً بعد حين ، وازدحامها بالخواطر عدد الثواني واللحظات ، هم الذين يعرفون حقيقة هذه المسافات فى عالم الفكر والروح ، ويعرفون أنه يعنى ما يقول حين يقول : « لو تمثلتْ مكاناً منظوراً ، لأخذ المرء رأسه بيديه من الدوار » !

* * *

قلت فى التمهيد لهذه الكلمات : إن العقاد دارس شخصيات وإن كل إنسان يدرسه العقاد تستطيع أن تعرف « من هو » وإن لم يستوعب كل صفاته وكل ما وقع له فى حياته ؛ وهذا ما تجده فى « عبقرية محمد » فى نضج واستواء ؛ وإنه ليبدأ بعد المقدمة مباشرة فى ص ١٦ فيرسم بخطوط سريعة التصميم الأولى للصورة تحت عنوانات : « عالَم . أمة . قبيلة بيت . أب . رجل » ... فتحس بعمل الريشة الماهرة المتيقظة لما تريد ، العليمة بقواعد التصميم والتلوين ؛ فإذا انتهى إلى ص ٢٦ أحسست أن التصميم كله قد تهيأ على اللوحة ، وأن صورة محمد وعصره ووظيفته فى هذا العصر قد برزت من خلال هذه الخطوط السريعة ، فلم يبق للريشة المدربة إلا التلوين ، وملء الفجوات ، وتوضيح القسمات ، وذلك هو بقية فصول الكتاب !

وسنحاول أن نعرض هنا بعض لمسات هذه الريشة المدربة فى تخطيط التصميم الأولى السريع :

يقول فى ص ٢٦ و ٢٧ : « عالم يتطلع إلى نبى ، وأمة تتطلع إلى نبى ، ومدينة تتطلع إلى نبى ، وقبيلة وبيت وأبوان أصلح ما يكونون لإنجاب ذلك النبي ... ثم ها هو ذا رجل لا يشركه رجل آخر فى صفاته ومقوماته ، ولا يدانيه رجل آخر فى مناقبه الفضلى التى هيأته لتلك الرسالة الروحية المأمولة : فى المدينة ، وفى الجزيرة ، وفى العالم بأسره

« نبيل عريق النسب ، وليس بالوضيع الخامل فيصغر قدره فى أمة الأنساب والأحساب

« فقير وليس بالغنى المترف ، فيطغيه بأس النبلاء الأغنياء ، ويغلق قلبه ما يغلق القلوب من جشع القوة واليسار

« يتيم بين رحماء ، فليس هو بالمدلل الذى يقتل فيه التدليل ملكة الجد والإرادة والاستقلال ، وليس هو بالمهجور المنبوذ الذى تقتل فيه القسوة روح الأمل وعزة النفس وسليقة الطموح وفضيلة العطف على الآخرين

« خبير بكل ما يختبره العربى من ضروب العيش فى البادية والحاضرة : تربى فى الصحراء وألف المدينة ، ورعى القطعان واشتغل بالتجارة وشهد الحروب والأحلاف ، واقترب من السراة ولم يبتعد من الفقراء

« فهو خلاصة الكفاية العربية فى خير ما تكون عليه الكفاية العربية ، وهو على صلة بالدنيا التى أحاطت بقومه ، فلا هو يجهلها فيغفل عنها ، ولا هو يغامسها كل المغامسة فيغرق فى لجتها .

« أصلح رجل من أصلح بيت فى أصلح زمان لرسالة النجاة المرقوبة على غير علم من الدنيا التى ترقبها

« ذلك محمد بن عبد الله عليه السلام ... »

وذلك جانب من التصميم الأولى للصورة البارعة التى تأخذ هذه الريشة المدربة بعد ذلك فى ملئها وتلوينها بما هو أبرع من

هذه البراعة ، وبما يتفق للألوان المنتقاة وللريشة الدقيقة فى اليد البصيرة من الإبداع

وليس من المستطاع بطبيعة الحال أن أنقل هنا أكثر من هذه الفقرات ، فهنالك أشياء أخرى لا بد أن تقال

* * *

قلت : إن كل الحوادث والأسانيد والروايات التى وردت فى « عبقرية محمد » مرويةومعروفة وليس فيها من جديد . إنما الجديد هو عرضها واستخدامها واستخلاص النتائج منها . وهو اختيار الحادثة المناسبة فى موضعها المناسب . ومن هذا كله تبدو الحوادث والروايات والنصوص فى مواضعها وكأنها جديدة هناك ، يطالعها القارئ لأول مرة ، ويخطر له من معانيها فى مواضعها هذه ما لم يخطر له قط وهو يراها من قبل مرة ومرة .

فسرية عبد الله بن جحش وأخبارها معروفة مكرورة ولكنها هناك تدل على « عبقرية محمد العسكرية » كأحسن ما تكون الدلالة بغير تعسف ولا عنت . وعهد الحديبية وأخباره معروفة كذلك مكرورة ، ولكنها هناك تبرز بوضوح ويسر « عبقرية محمد السياسية » كأوضح ما تكون العبقرية السياسية بأى ميزان وزنتها به فى جميع الأزمان . وقصة الإفك مذكورة فى كل كتب السيرة والتفسير مشهورة عند المسلمين وغير المسلمين ولكنها هناك تصور « سماحة محمد » وتلمس النفس الإنسانية فتدرك حقيقة هذه السماحة ومداها الرفيع . وقصة المتاع وأزواج النبى التى ترويها الآية : « يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ... الخ » متداولة فى السيرة والتفسير ولكنها هناك دليل نفسى وعقلى لا يرقى إليه الشك ، ولا يجادل فيه إلا المكابرون على كذب ما افتراه المفترون من استغراق لذات الحس لمحمد عليه السلام

وهكذا وهكذا من حسن الاختيار ووضوح العرض ، وبراعة التعليق ، وعبقرية التحليل ، ووضاحة التدليل .

هناك تدل على « عبقرية محمد العسكرية » كأحسن ما تكون

(البقية فى العدد القادم)

سيد قطب

إلى ذوى العصبية والى المصابين بالاضطرابات العصبية

ترسل تعليمات مجانية من شرح طرق وتدريبات تعلمك كيف تتخلص من الخوف والوهم والخجل والكآبة والوسواس ومن جميع الاضطرابات العصبية والعادات الضارة كشرب الدخان ومن العلل والآلام الجسدية وفى تقوية الذاكرة والإرادة ودراسة الفنون المغناطيسية لمن أراد احتراف التنويم المغناطيسى والحصول على دبلوم فى هذا الفن اكتب إلى الأستاذ ألفريد توما ٧١٩ شارع الخليج المصرى بغمرة بمصر وارفق بطلبك ١٥ مليما طوابع المصاريف فتصلك التعليمات مجاناً .

مجلس مديرية الجيزة

يعلن عن وجود وظيفة طبيب خالية لوحدة صحية ويشترط عدم مباشرته لعيادة خصوصية بماهية شهرية ١٢ جنيها وذلك خلاف بدل عدم مزاولة المهنة فى الخارج وقدره ستة جنيهات شهرياً . وتقدم الطلبات برسم سعادة رئيس المجلس على الاستمارة رقم ١٦٧ ع . ح « طلب استخدام » لغاية يوم ١٠ - ٧ - ١٩٤٢ ٩٥٢٣